الفصل الثالث

قصة سيدنا إبراهيم(ع)

يحكى أن رجلا ظهر قبل أكثر من ألفين وخمسمائة سنة في منطقة أذربيجان أقصى الشمال الغربي من بلاد فارس (إيران) قرب نهر يسمى (آراس)، يدعى زرادشت. ادعى هذا الرجل أنه نبي أو رسول وله كتاب منزل من عند الله، وبدأ الناس يستمعون له، فمنهم من عارضه وابتعد عنه ومنهم من صدّقه وآمن به. وبمرور السنين صار له أتباع ومريدون عرفوا فيما بعد باسم الزرادشتيون أو المجوس، وبالتدريج وشيئا فشيئا آمنت بدعوته غالبية الأمة الفارسية وما حولها. وما يهمنا من هذه الحكاية أنه عند تفحص كتب تلك الأمة القديمة، نجدهم ما زالوا يحتفظون في كتب تراثهم وتاريخهم، قصصا عجيبة لنبيّهم زرادشت لا تختلف كثيراً عن قصة سيدنا إبراهيم(ع)، بل قد تفوقها في غرابة أحداثها، خاصة وأنها حدثت له وهو ما يزال صغيرا في سن الطفولة.

تقول إحدى القصص: عندما كان النبي زرادشت طفلا رضيعاً، رماه سحرة الأمة السابقة في وسط نار مذبح معبدهم بعدما تنبؤا بمستقبله العظيم خشية أن يخرب طقوسهم ويمحو معتقدات دينهم عند بلوغه سن الرشد، لكن الغريب أن هذا الطفل بقي سالما ولم يحترق أو يصبه سوء حتى جاءت والدته لاهثة فزعة لتلتقطه من وسط النار وهو يلهو ويلعب في داخلها غير شاعر بلهيبها.[1].

وعندما فشلت جهود السحرة ورجال الدين في التخلص من هذا الطفل العجيب، استمروا في حياكة المؤامرات للنيل من حياته، لكنه بقي ينجو من دسائسهم في كل مرة حتى جاءه الوحي وهو رجل راشد وأعلن نبوءته. وعندما أراد أن يوصل لملك إيران بشارة نبوءته، توجه إلى بلاط قصره الكبير ووقف عند الباب يطلب مقابلته، (.. وأمسك زرادشت بيده كرة من النار ورفعها في وجه حارس الباب وهو يقول: لتكن هذه آيتي ودليلك على أني جئت باسم الإله الواحد الحكيم..! وانطلق حارس القصر في قوة واندفاع مذعوراً إلى قاعة العرش، حيث كان الملك جالساً يحيط به حكماؤه وكهنته. وهتف الحارس وهو يلهث: بالباب رجل عجيب حقاً، يريد أن يراك أيها الملك.. وهو يدعي أنه نبي من عند إله واحد، ويمسك في يده كرة من النار تلتهب ولكنها لا تحرقه..!)[2].

ورغم حصول كل تلك العجائب والخوارق للعادات والقوانين الطبيعية، إلا أن النبي زرادشت بقي في أول أمر دعوته وحيدا فريدا لعدة سنوات ولم يؤمن به إلا القلّة حتى آمن ذلك الملك بعد قصة طويلة مليئة بأنواع المعجزات العجيبة ما زالت مدونة في كتب تاريخ أولئك القوم وتراثهم.

فلو أردنا تفحص نقاط الاتفاق والاختلاف بين قصة النبي زرادشت وقصة سيدنا إبراهيم(ع) وحاولنا المقارنة بينهما وبحثنا عن الأسباب التي أدت إلى تجاهل المسلمون أو رفضهم للقصة الأولى والأيمان والقبول بأحداث القصة الثانية، لوجدنا أن نصوص القرآن الكريم تلعب دوراً أساسياً في هذا الاعتقاد، فطالما يؤمن المسلمون أن القرآن الكريم كتاب منزل من رب العالمين لا شك ولا ريب فيما سطّر بين دفتيه، وأنه أشار ولعدة مرات وبشيء من التفصيل لقصة سيدنا إبراهيم(ع)، بينما لم يأت على ذكر أمة المجوس ولا عن معجزات رسولهم إلا في آية واحدة تقريبا وليضع اسمها وسطا بين أمم أصحاب الكتب المعروفة وبين أمة المشركين، فقد يكون هذا التسلسل والتعداد في الآية الكريمة هو الذي أضفى على عقيدتها ظلالا من الريبة والشك أدى بالتالي إلى اعتبارها أمة مشركة، كما في قوله تعالى **(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ)**[3].

أما عند قراءة قوله تعالى **(وَعَادًا وَثَمُودَ وَأَصْحَابَ الرَّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيراً)**[4]، وكذلك قوله الكريم **(كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ)**[5]، نتساءل عن حقيقة تاريخ أمة أصحاب الرّس وأين كان أصلهم وموطنهم وأين عاشوا وسكنوا وأين آثار وبقايا حضارتهم وهل هناك علاقة بينهم وبين أهل إيران ونبيهم القديم زرادشت. ومما يزيد الأمر استغرابا حشر القرآن الكريم لاسم أمتهم بين أمم عرفت بتاريخها الطويل في معارضة الرسل وتكذيبهم.

من المعلوم أن الزرادشتيون هم أهل إيران الأصليون قبل ظهور دين الإسلام، فإذا بحثنا بين الأسماء القديمة لتلك المناطق وجغرافيتها، وأخذنا في الاعتبار ما جرى عليها من تغيرات وتبديل نتيجة تعاقب الزمان وتناوب الأمم وما مر بها من هجرات الأقوام واستقرارهم وتغير اللغات وتطور اللهجات والفرق الواضح بين لغة الفرس القديمة وبين لغتهم في هذه الأيام وما كان للغة العربية من تأثير بالغ الأثر عليها بعد دخولهم دين الإسلام، نتساءل: هل هناك علاقة ما بين كلمتي أصحاب (الرس) ونهر (آراس) الواقع في الشمال الغربي من دولة إيران، وهل تدل هذه الإشارة على أمر ما؟ أما عندما نقرأ ما دعا إليه زرادشت من تعاليم ووصايا

ونصائح للناس، فنجدها ترتكز في أساسها على عبادة الإله الواحد ونبذ تبعية الأصنام وترك أقوال السحرة، وتدعو إلى مكارم الأخلاق والسلوك الحسن والعمل الصالح وخدمة وإصلاح المجتمع، وهذا ما يدفعنا للتساؤل: هل كان زرادشت نبياً من عند الله أم كان فيلسوفا أو مصلحاً اجتماعياً؟ وهل هناك علاقة بين (أصحاب الرس) و (المجوس)، وهل هما اسمين لأمة واحدة؟

لم يكن القصد من هذه المقدمة القصيرة، إلا لنعلم أن عملية الحرق بالنار لم تقتصر على سيدنا إبراهيم(ع) فقط، وإنما هناك أمما أخرى تعتقد بمثيلتها منذ قديم الزمان.

* * *

نعود إلى محور الحديث حول قصة سيدنا إبراهيم(ع)، ونحاول تناولها بطريقة جديدة من خلال إضفاء منظور علمي ديني عليها، محاولين إدراك مغزى قصة رميه في النار وكيفية خروجه سالما منها، وكيف أحيا الطيور الأربعة وأعاد لها الحياة وهي مقطّعة الأوصال منثورة الأعضاء على رؤوس جبال أربعة.

فالحكاية بطرحها القديم قد لا تتفق مع العلم، ومن الوارد أن هناك من ينظر إليها بعين الريبة أو يتخذها كحكاية تراثية مسلية. وسبق وقلنا بضرورة توافق المفاهيم الدينية مع العلم والعقل، فإن تناقضا أو تباينا، فأما أن يكون التفسير المطروح فيه شيء من الخطأ والوهم، والعلم هو الصحيح، أو يكون التفسير صحيحاً، والعلم هو الخطأ.

من المعلوم أن سيدنا إبراهيم(ع) ولد وعاش في أرض الرافدين، ومن خلال حسابات أقدم النصوص، يكون قد عاش قبل أكثر من أربعة أو خمسة آلاف سنة، وأن وجوده آنذاك تزامن مع وجود كثير من أتباع الديانات القديمة كما هو معروف عن أرض العراق. وبهذا يمكن افتراض ظهور سيدنا إبراهيم(ع) وسط أمة تتبع شريعة سماوية، خاصة والقرآن الكريم يؤكد كما سبق وذكرنا أنه ما من أمة من أمم البشر إلا وقد جاءها نبي أو رسول نذير، ينذرهم من مغبة الكفر وتكذيب رسل الله تعالى **(إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إلا خلا فِيهَا نَذِيرٌ)**[6].

ومن المعلوم أن البشر في قديم الزمان . ولا يزالون . ينحتون تماثيلا ويجسمون أصناما لأنبيائهم وأجدادهم وقديسيهم بعد وفاتهم ورحيلهم، تخليدا واحتراما لذكراهم، لكن هذا التصرف تسلل بخفة إلى عقول

الناس وأذهانهم وراح يتطور ببطء ليتمحور مع مرور الوقت وتوالي الأجيال ولينقلب إلى نوع من أنواع التقديس والعبادة لهذه التماثيل والأصنام والمجسمات، وهذا ما أدى في نهاية المطاف إلى الابتعاد عن صراط كل دين حق والانحراف عن سواء السبيل.

إذن من الوارد أن تكون الأمة التي ظهر بينها سيدنا إبراهيم(ع)، أمة لها دين سماوي قديم، تحولت عبادتها وطقوسها مع مرور الوقت والزمان إلى عبادة الأصنام والأوثان، ومن الوارد أيضا أن الله سبحانه وتعالى يمثل ويشبه في قرآنه الكريم رجال الأديان القديمة بالأصنام والأوثان لما بينهما من حالات التشابه في العجز وعدم الفائدة وفي إضلال العباد وإبعادهم عن طريق الحق والصواب.

يقول سبحانه وتعالى في كتابه الكريم عن تلك الواقعة الفريدة العجيبة **(قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنتُمْ فَاعِلِينَ . قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ)**[7].

إن أول ما يوقفنا في هذه الآية الكريمة، كلمة (حرّقوه)، وفي الحقيقة تعتبر هذه الكلمة المحور الذي تدور حوله تفاسير حكاية الحرق بتمامها، فهي التي أدت إلى تفهّم مجمل تفاصيل القصة بالمفهوم السائد. لكنه وبعودتنا إلى كتاب "لسان العرب"، نجد أن لهذه الكلمة معنى آخر قد يساعد في استخراج مفاهيم معنوية أخرى مختلفة، حيث جاء من بين معانيها العديدة: {الـ (حرق): هو الغضب والغيظ والحنق}. وهنا نجد أن هذا المعنى يفتح آفاقا جديدة أمام تناول القصة بشكل آخر مختلف عما اعتدنا عليه. فلو استعضنا عن المفهوم المادي للنار في القصة، واستبدلناه بالمفاهيم المعنوية، مثل نار الكفر والضلالة ونار الحسد والبغضاء ونار الغيظ والحنق والغضب والكراهية، ورمضاء التعصب والعصيان والتمرد على الله ورسوله التي تستعر في قلوب أصحاب العقائد القديمة تجاه كل دعوة سماوية جديدة؛ لاتضح أن للقصة معنى آخر، ولأدركنا أنه من الوارد أن يكون النمرود وأتباعه ورجال الدين في زمانه لم يرموا سيدنا إبراهيم(ع) في هذه النار المادية التي توقد وتشعل من أعواد الحطب وألواح الخشب وسوائل الوقود فتحرق كل شيء وتصهر حتى أصلب أنواع المعادن، بل من الوارد أنهم هاجموه بنيران ألسنتهم ونيران أحقاد قلوبهم وعقولهم ورموه بسهام نيران الكفر والعصيان وجمر العناد والمعاندة وضمراء الحسد والغيظ وآتون الحنق والمحاربة التي واجهوه وعارضوه بها لإخماد جذوة نار دينه الحق انتصارا لمعتقداتهم ومناصرة لأصنام رجال دينهم من قبل أن تتوسع نيران دينه الجديد وتحرقهم ومعتقداتهم القديمة وتنير سبيلهم وتضيء عقولهم. لكن سيدنا إبراهيم استطاع بالصبر والإيمان والتمسك

بأوامر الله مثلما فعل من بعده ومن قبله جميع الرسل والأنبياء، الخروج من هذه النيران المعنوية الشريرة سليماً معافى، وتمكن من نشر أمره ودينه بين الناس وأوقد شعلة الأيمان الصادقة الحقيقية من جديد في مواقد القلوب الطيبة وبعث نيران الإيقان في مراجل العقول النيّرة وأحيا روح إيمان النفوس الميتة وبعثها بروح الحق الجديد، وفي نهاية الأمر انتصر على عناد النمرود ورجال دينه وبدد آمالهم وأفشل خططهم في وأد دعوته من خلال هجرته إلى بلاد أخرى باحثاً عن أراض قلوب خصبة مستعدة لقبول بذرة الأيمان والخشوع ورعايتها.

من المؤكد أن هذا الطرح الجديد، سيجد صعوبة في تبديل جذور الفكرة القديمة المترسخة في أعماق عقول الناس وقلوبهم للآلاف السنين؛ لكننا لو تعمقنا في البحث بين بطون الآيات الكريمة، لوجدنا أن هناك أدلة أخرى تشير إلى أن كلمات القرآن الكريم لا تؤخذ فقط بمعانيها الحرفية الظاهرية على الدوام. فعلى سبيل المثال، لو قرأنا قوله تعالى **(يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ)**[8]، وأردنا أخذها على معانيها الحرفية، لاشتبهت علينا أمور كثيرة ولصعب التوفيق فيما بين ظاهر كلماتها ومقاصدها. لذا كان لابد من أخذها بمعانيها الرمزية المعنوية، لأن هناك فرق كبير بين النار والنور، فالنور لا يطفئ بالأفواه أو بالماء، ثم أن النفخ والريح والهواء يزيد من اشتعال النار ولهيبها ولا يساعد في إطفاءها. لكننا لو قلنا أنهم يريدون أن يطفئوا نور الله المتلألئ في آياته بما يتقولون به من ضديات ورديات ومفتريات، ويأبى الله إلا أن يتم سريان قوة نور الأيمان في قلوب العباد حتى لو كره الكافرون ولم يرتضوا. لكان ذلك أقرب إلى المعنى الحقيقي.

ولنأت بمثال آخر على استعمال كلمة النار أو الحرق بطريقة مجازية في القرآن الكريم، قال تعالى **(إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنْ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً أُوْلَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلا النَّارَ وَلا يُكَلِّمُهُمْ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)**[9]، فالإشارة إلى الذين (يكتمون)، قد تعني رجال الدين، فليس هناك غيرهم من يعرف أسرار الكتب الإلهية فيعلنها للناس أو يكتمها، والحقيقة أن الذين يكتمون ما أنزله الله من حقائق المعاني اللطيفة في مختلف كتب الأديان والعقائد السماوية، نراهم يمشون بين الناس بكامل الهيبة والوقار ولا يبدو عليهم أنهم يعانون أو يتألمون من نيران تستعر في بطونهم، بل أنهم قد لا يشعرون حتى بأنهم يكتمون ما أنزل الله.

أما إذا قرأنا قوله الكريم **(أُوْلَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوْا الضَّلالَةَ بِالْهُدَى وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ)**[10]، فنفهم من عبارتها الأخيرة، أنها صيغة تعجب تشير إلى قدرة أولئك الذين يشترون الضلالة بثمن الهدى ويتقبلون العذاب بثمن المغفرة على تحمل قوة النار والصبر على حريقها وهم في داخلها! أي أن الآية توضح بطريقة من الطرق، أن هؤلاء المشترين لهم الخيار والإمكانية على ترك النار والابتعاد عنها، لكنهم لا يفعلون بل ويستمرون في الجلوس وسط النار! فإذا تقبلنا فكرة جلوسهم على النار، فلا يمكن تقبل فكرة صبرهم عليها، فهذا أمر مستحيل لا قدرة لإنسان عليه؛ أما لو قلنا أنهم قادرون على تحمل نيران الضلالة والكفر وضمراء العذاب المعنوي، وأن بإمكانهم تحملها والصبر عليها وهم في داخلها، لأنهم يظنون أنهم يحسنون صنعا، ولكنهم هم المفسدون ولا يعلمون؛ لكان هذا أقرب إلى المنطق والعقل.

ومثال آخر عن مفهوم النار والنور: قال تعالى **(وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنْ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ)**[11]، في هذه الآية الكريمة، ينزل الأمر الإلهي إلى سيدنا موسى(ع) بإخراج قومه (بني إسرائيل) من الظلمات إلى النور، والحال أن بني إسرائيل لم يكونوا يعيشون في جحور محفورة تحت الأرض أو في كهوف غائرة في بطون الجبال بعيدين عن نور الشمس وضيائها، بل كانوا يعيشون على الأرض تحت أشعة الشمس وتحت نير سلطة فرعون وظلمه. إذن يمكن القول أن المقصود من الإخراج هنا، هو إخراجهم من ظلمة الكفر وديجور الضلالة إلى نور الإيمان وضياء الإيقان بدين الله.

ومثال آخر: قال تعالى **(الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنْ الشَّجَرِ الأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ)**[12]، فلو أخذنا هذه الآية الكريمة على ظاهر معانيها، نستغرب من إيجاد النار أو إيقادها من الشجر الأخضر! ولماذا لم تقل الآية الكريمة (الشجر الجاف أو الشجر اليابس الميت)، فهذه هي المواد الطبيعية للحصول على النار منها. وإلا فالنار لا توقد من الشجر الأخضر، وهذا أمر بديهي يعرفه صغار الحطابين وبسطاء الفلاحين وعامة الناس ناهيك عن عقلائهم. لكننا عندما نتذكر أن الله سبحانه وتعالى يضرب الأمثال حينما يشاء توضيح أمر ما لعباده من أولي الألباب، كما في قوله العزيز **(وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ)**[13]، نفهم أنه يمكننا تناول معنى الشجر الأخضر في الآية الكريمة على أنه شجر الشرائع الإلهية الطري؛ فعند بداية نزول أي شريعة سماوية، تكون في أول نزولها، شجرة نضرة خضراء حيّة تمنح من يؤمن

بها حياة الأيمان وأثمار البركات وتشعل في قلوبهم وعقولهم نيران العلوم والمعرفة وأنوار الإيمان والإيقان لتحييهم بحياتها وتخرجهم من ظلمات الكفر إلى نور الأيمان. أما عندما ينزل الأمر الإلهي بنسخها وتبديلها في نهاية حياتها وتمام عملها وبعد تحقق أهدافها في هداية العباد، عندها تمسي شجرة شريعة ميتة خامدة لا حياة ولا نور حق ولا نيران أيمان فيها، وكل من يبقى من أتباعها مصراً معانداً متعصباً للاستظلال بظلها، لا يجني من ورائها إلا ظلمات الكفر وظل الضلالة.

من هذا لا يمكن على الدوام أخذ معاني كلمات الآيات الكريمة على ظاهرها فقط، كما لاحظنا ذلك في الأمثلة السابقة ونلاحظه بين بطون أمهات كتب التفسير.

من كل هذا، قد تكون لقصة رمي سيدنا إبراهيم(ع) في النار، معاني أخرى، كرميه في نيران التعصب والكراهية والحقد من قبل رجال قومه لإطفاء نار شريعته الجديدة، لكنه سبحانه وتعالى نجّاه من كيد الكافرين ونصره في أرض أخرى وساعده في نشر دينه الجديد.

* * *

أما ما يعرف عن معجزة سيدنا إبراهيم(ع) في إعادة الحياة إلى أربعة طيور بعد تقطيعها وتوزيع أوصالها على قمم الجبال، فلنأخذ الآية الكريمة ونقرأها بطريقة جديدة، علّنا نجد فيها ما يضفي عليها بريقاً جديداً، قال تعالى **(وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنْ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ)**[14].

قبل كل شيء، تتكلم هذه الآية الكريمة كغالبية آيات القرآن الكريم عن أزمان ظهور رسل من عند الله، وأزمان بداية إعلانهم لدعواتهم، كما أنها تثبت بصورة من الصور، أن النفس البشرية تمتاز منذ ذلك الزمان بروح العناد والجدل والتعصب، كما أشار إلى ذلك بصراحة قوله تعالى **(وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً)**[15]، وكذلك قوله الكريم **(وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلا كُفُورًا)**[16]، فهذه الطبيعة البشرية السلبية، قد تشتد في عنادها حتى مع رسل الله وأنبيائه المقدسين، وقد ترفض دلائل الحق وآياته البينات حتى ولو رأتها بعينها ولمستها بيدها، كما قال تعالى

(يَعْرِفُونَ نِعْمَةَ اللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمْ الْكَافِرُونَ)[17]، وكذلك قوله الكريم **(وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنْ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لا يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَئِكَ هُمْ الْغَافِلُونَ)**[18].

فسيدنا إبراهيم(ع)، يمثل في هذه القصة من جانب آخر، النفس الإنسانية العاقلة الحكيمة التي تقتنع بالأدلة والبراهين، ومن الوارد أنه يطلب من الله سبحانه وتعالى مشاهدة طريقة إحياء موتى الإيمان وليس موتى الأجساد، باعتباره قد علم مسبقا أنه اختير لتنفيذ هذه المهمة الروحانية، كما هو الحال عند اختيار جميع مظاهر الله المقدسة ومن ضمنهم سيدنا محمد(ص) عندما خاطبه رب العزة في قوله تعالى **(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ)**[19]، فمحمد(ص) لم يحيي أجساد الأموات ولم يخرجهم من قبورهم بعد تحللها وتفسخها، بل أحيا أموات الأرواح والايمان بعدما ماتوا بروح الكفر والعصيان.

كما أن العبارة المشهورة في الآية الكريمة **(أَوَلَمْ تُؤْمِنْ)**، لم يقصد بها الإشارة إلى نوع من المجادلة بين سيدنا إبراهيم ورب العزة، أو حالة من التشكك بقدرة الله العظيمة، فهذا مفهوم بعيد عن عبودية الرسل ودرجات خشوعهم الكاملة، بل يمكن أخذها كنوع من التعليم الإلهي اللطيف لعباده وخلقه، لأن سيدنا إبراهيم(ع) كان رسولا مختاراً ونبياً مطيعاً ومؤمنا صالحاً وعبداً حنيفاً ومثالاً يحتذي به الناس في طريقة تعبدهم، كما قال سبحانه وتعالى عنه في مجموعة من آياته الكريمة **(مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنْ الْمُشْرِكِينَ)**[20]، وكذلك **(وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً)**[21]، وكذلك **(إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ)**[22]، وأيضا **(إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُنْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ)**[23]، وكذلك **(وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا)**[24]، ثم **(سَلامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ)**[25]، وكذلك **(وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى)**[26]. فبعد قراءة كل هذا الكم الهائل من الصفات الطيبة والمثل العليا التي يصف بها رب العزة سيدنا إبراهيم(ع) أبو الرسل والأنبياء، كيف يمكن أن يخطر على البال أو حتى مجرد تصوّر فكرة تشككه في لحظة من اللحظات بقدرة الله وعظمته على إحياء الموتى!؟

لذلك لابد أن يكون من معاني العبارة الكريمة **(أَوَلَمْ تُؤْمِنْ)** إشارة إلى أمر آخر غير التشكك وعدم الثقة والإيقان. ومن الوارد أن يكون من معانيها إشارة إلى الزمن السابق لبعثته، عندما كان إبراهيم ينتمي إلى دين أمته القديمة. أي: ألم تكن مؤمنا بالله من قبل؟ أو: ألم تكن مؤمناً من قبل بدين من أديان الله السابقة؟ فيجيب

سيدنا إبراهيم(ع): **(بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي)**، أي نعم أنا موقن ومتأكد أنك منزل شريعة آبائي وأجدادي السابقة، ونعم أنا موقن أنك أحييتهم بالأيمان من قبل، ولكني أريد أن أرى ذلك الإحياء الروحاني بعيني حتى يطمئن قلبي لمهمتي القادمة بين هؤلاء القوم قساة القلوب.

ومما يؤيد هذا الرأي، شهادة سيدنا إبراهيم(ع) على انفطار السماء في قوله تعالى **(قَالَ بَل رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَى ذَلِكُمْ مِنْ الشَّاهِدِينَ)**[27]، إذ ليس من الممكن، أو ليس من المعقول أن يشهد سيدنا إبراهيم(ع) على انفطار أو انشقاق هذه السماء الظاهرة، فهو لم يكن قد خلق أو ولد بعد، لكنه يشهد على انفطار سماء الديانة القديمة التي شارك هو في فطرها وكشطها وإزالتها فعلا بعدما بدأ وشرع في تأسيس وبناء سماء دينه الجديد.

فسيدنا إبراهيم(ع) يشك ويتشكك ولا يتصور إمكانية أيمان قومه وانقلابهم لتقبل دينه الجديد، فهو منهم وعاش بينهم ويعلم مقدار عنادهم ودرجة تعصبهم لدينهم وقوة إصرارهم على عدم التخلي عن موروثاتهم. فالآية الكريمة، توضح ما كان عليه قوم إبراهيم من قوة العناد وشدة التعصب وقسوة القلوب بدرجة أن سيدنا إبراهيم(ع) لم يصدّق إمكانية تحولهم من حالة الموت بالكفر القديم إلى حالة الحياة بالأيمان الجديد الذي يدعوهم إليه، ويبدو أنه خبير مطلع بأحوالهم وعلى دراية تامة بمقدار توغلهم وغوصهم في بحور الغلو والتعصب. وهذا ما حصل فيما بعد بالفعل، ففي النهاية طردوه من أرضهم مما اضطر إلى ترك موطنه ومغادرة أرضهم والهجرة إلى أرض الشام وفلسطين ومصر ومن ثم إلى الجزيرة العربية لنشر دينه بين أقوام أخرى أكثر استعدادا لتقبل الإيمان. وبهذا تصدق مقولة السيد المسيح(ع): لا كرامة لنبي بين قومه.

(وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتَى)، أي يا إلهي.. إنك أمرتني بإعلان دين جديد بين قومي، وأنا عشت وترعرعت بينهم، وأعلم مقدار تعصبهم وغلوهم في دينهم، وأنه من المستحيل أن يتقبلوا دعوتي الجديدة، وسيفعلون كل ما يستطيعون عليه لمقاومتي وصدّي ووأد دعوتي.

(قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ)؟ هنا يسأل رب العزة خليله إبراهيم، ويذكّره بما سبق وحدث من قبل حينما حصل ذات الشيء بين قومه حينما ظهر دين أجداده الذي ما زال أبيه آزر يؤمن به حتى الآن، فلقد ظهر ذلك الدين بين ذات الأمة وكانوا من قبل على ذات العناد والتعصب وحاربوا رسولهم السابق، كما يتوقع إبراهيم منهم الآن

محاربته. فهو لا يشك بقدرة الله وقوته وحكمته على تغيير قلوب الناس، بل يشك بنفوس قومه المتوغلة في أعماقها صفات العناد وجذور التعصب والغلو إلى حد النخاع حينما يجيب ربه: **(بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي)**، أي أريد مثالاً واقعياً ملموساً على إمكانية إيمان هؤلاء القوم بديني الجديد، فأنا لا أتصور إمكانية تحولهم من دين عاشوا وتربوا على تعاليمه وطقوسه لمئات السنين إلى إيمان جديد بدين جديد بمجرد أن أدعوهم إليه.

(قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنْ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ)، نلاحظ أن الكلام كان عن الأيمان والدعوة إلى دين جديد، أما دخول مفهوم (الطير)، فيبدو غريبا عن جوهر الموضوع بعض الشيء. لكننا عندما نعلم أن الله سبحانه وتعالى يحب وصف المؤمنين التقاة الثابتين على دينه بالطيور وتشبيههم بها، كما قال تعالى **(أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ)**[28]، نفهم بعضا من أصل الموضوع. ففي هذه الآية الكريمة، نجد أن الله سبحانه وتعالى يشير إلى أمر غريب وهو أن الطيور تدرك وتعلم وتفقه صلاتها وتسبيحها! ومن المعلوم أن هذا أمر مستحيل وغير ممكن حسب قوانين الطبيعة التي خلقها وأوجدها رب العزة بذاته. لأن الصلاة والتسبيح عمليتان لاحقتان لحالتي التفكّر والتعقل المتفرد بهما الإنسان لوحده، فهو المخلوق الفريد الذي يملك العقل ليفكر به. لذلك فالطيور لا تصلي ولا تسبّح، لا بعقولها ولا بألسنتها ولا بحركاتها، إنما هي تحكي للإنسان العاقل من خلال وجودها وطبيعة حياتها البسيطة عن عظمة خلق الله، وتضرب له مثلا بهذا المخلوق السامي المختلف عن غيره من المخلوقات حالة ترفعه وأنفته عن التعلق بتراب الدنيا وملذاتها. هذا بالإضافة إلى أن أحوال الطيور وأفعالها ومعيشتها ليست بالمسألة المستعصية الخافية، فالكثير من الناس يعرف تفاصيل حياتها وطريقة عيشها. لكن المقصود من الإتيان على ذكرها كمثال، هو تشبيه الإنسان المؤمن الروحاني بأحوالها وطريقة حياتها وسموها ولطافتها ووداعتها وجمالها وتنزهها عن متطلبات الحياة الأرضية الدانية، فهي تعيش في أوكارها وأعشاشها على أعلى الأغصان مبتعدة قدر الإمكان عن عالم التراب، عالمها هذا الفضاء الكبير، تكتفي بتناول ما بقربها من لذيذ الثمار والفواكه، لا تنزل من علوها إلى الأرض إلا حينما تبتغي نيل بضع قطرات من الماء لتروي عطشها أو عندما تشاء التخلص من أدران الدنيا وأتربتها في مياه الجداول والأنهار، منتبهة حذرة من تقرب بقية المخلوقات منها والاعتداء عليها، تسارع للطيران والعلو حالما تنهي مهمتها.

وهكذا هو حال المؤمنين الروحانيين الحقيقيين، فهم يقضون جلَّ أوقاتهم طائرين في سماء العبادة وفضاء الخشوع والإيمان والعلو، مترفعين عن شؤون الدنيا التي تلهي غيرهم من الماديين وتجذبهم إليها.

إذا علمنا هذا وانتبهنا إلى هذه النقطة الحساسة، نفهم أن جوهر الحديث في الآية المباركة لم يخرج عن إطار الأيمان والدين والمؤمنين، وبقي في صلب الموضوع.

نعود للفقرة المباركة **(قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنْ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ)**، أي يا إبراهيم: لقد آمن بدعوتك عدد قليل من قومك، فخذ أربعة منهم وتكلم معهم وزد في ثباتهم وإيقانهم في أمرك ودينك وأرفع من مستوى أيمانهم ودرجة إيقانهم حتى يصبحوا مثل طيور السماء في علوهم وطهارتهم وترفعهم عن شؤون الدنيا، وعندما تثق من ثبات نفوسهم وتتأكد من تجردهم عن عالم التراب والماديات وأنهم نفضوا عن قلوبهم وعقولهم ما التصق بها من تراب الأوهام وغبار الخرافات السابقة، عندها **(ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا)**، أي أرسل كل واحد منهم إلى رجل جبل دين معروف من أعلام الدين السابق ليناقشوهم في أمور دينهم ويتحاجوا معهم ويبرهنوا لهم أحقية دينك الجديد، واتركهم عندهم لفترة كافية حتى تتم الحجة ويكتمل البرهان **(ثُمَّ ادْعُهُنَّ)**، أي.. وبعد أن يكملوا نقاشهم ويقدموا ما لديهم من دلالات وحجج، اطلبهم ليعودوا إليك وإلى دينك؛ عندها تراهم **(يَأْتِينَكَ سَعْيًا)** أي ينهضون كالأسود من مجالس الكافرين نافضين عنهم غبار التعصب وعوالق العناد ويعودون كالجواهر النقية غير متأثرين بأقوال جبال رجال دينهم القدماء ثابتين على دينك لا يحيدون عن سبيل الحق وطريق الأيمان الصحيح، وسيأتون للانضمام إلى جماعتك ومؤمنيك مرة أخرى **(وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ)**، أي وبهذا تتأكد أن الله عزيز غني عن دواب الكافرين وأنعام المعرضين ولا يريدهم بين صفوف طيور مؤمنيه، وهو حكيم في طريقة تعامله مع قلوب عباده، وعالم بكيفية تقليب قلوبهم إلى طرق الأيمان والسبيل القويم.

الحواشي

(1) كتاب قصة الديانات، صفحة 283 تأليف سليمان مظهر 2002م.

(2) نفس المصدر السابق صفحة 295.

(3) سورة الحج، الآية 17.

(4) سورة الفرقان، الآية 38.

(5) سورة ق، الآية 12.

(6) سورة فاطر، الآية 24.

(7) سورة الأنبياء، الآيتان 68،69.

(8) سورة التوبة، الآية 32.

(9) سورة البقرة، الآية 174.

(10) سورة البقرة، الآية 175.

(11) سورة إبراهيم، الآية 5.

(12) سورة يس، الآية 80.

(13) سورة الزمر، الآية 27.

(14) سورة البقرة، الآية 260.

(15) سورة الكهف، الآية 54.

(16) سورة الإسراء، الآية 89.

(17) سورة النحل، الآية 83.

(18) سورة الأعراف، الآية 179.

(19) سورة الأنفال، الآية 24.

(20) سورة آل عمران، الآية 67.

(21) سورة النساء، الآية 125.

(22) سورة هود، الآية 75.

(23) سورة النحل، الآية 120.

(24) سورة مريم، الآية 41.

(25) سورة الصافات، الآية 109.

(26) سورة النجم، الآية 37.

(27) سورة الأنبياء، الآية 56.

(28) سورة النور، الآية 41.